من معالم شخصية الشيخ محمد الغزالي رحمه الله
وأهم العوامل المؤثرة في تكوينه

د. إبراهيم نويري
كاتب وباحث أكاديمي ــ الجزائر

مدخل:

يحاول هذا البحث إجلاء أبرز وأهم خصائص شخصية الشيخ الغزالي، إلى جانب التعرض لأهم العوامل والمؤثرات التي أسهمت بشكل أو بآخر في تكوينه الفكري وفي صياغة قواعد خلفيته العلمية.. وهي مجرد محاولة تروم تقديم فهم أو قراءة معينة لجوانب من سمات شخصية الشيخ الغزالي واستبطان روح هذه الشخصية الفذة باستخلاص خصائصها في أبعادها المختلفة، علما أن استجلاء هذه الأبعاد الشخصية ذات صلة وثيقة بفهم الآفاق الفكرية والعقدية التي خاض فيها الشيخ واجتهد في اطارها، اعتقادا منا بوجود الكثير من الانعكاسات والتأثيرات الخفية المتداخلة بين طبيعة الصياغات الاجتهادية والتوجهات الفكرية والمعرفية وبين طبيعة السمات العميقة والخصائص المركزية التي انطبعت بها هذه الشخصية الإسلامية المتميزة.

أولا: أهم سمات شخصية الغزالي:

اجتمعت في شخصية الشيخ الغزالي العديد من الخلال والشمائل والخصائص التي نادرا ما تتوافر مجتمعة في كيان واحد، وإنْ كنا نجدها موزعة متفرقة في نماذج إنسانية كثيرة، خاصة عند العلماء والأدباء والمفكرين والمصلحين، ولا شكّ أن بعض تلك الخصائص تتداعى إلى الذهن بمجرد ذكر اسم الشيخ الغزالي، ومن أهم تلك الخصائص ما يلي:

١) **قوة الاعتزاز بالله وشفافية الإيمان:** شخصية الشيخ الغزالي شخصية إيمانية ربانية في المقام الأول، فهي تذكّر بالله تعالى وبلقائه الحق، وهذه الخاصية تظهر من خلال حرارة حديث الشيخ الغزالي عن الله واعتزازه به على الدوام في أي وضع وحال، وهو لا ينسى ذلك مطلقا في أي موضوع يتصدى لمعالجته، ونحن نجده يعبر عن هذه الفضيلة النفسية الإيمانية الرائعة وهو في رحلة البدايات الأولى لتلقي العلم فيقول: "ولقد مرت بي لحظات استوحشتُ فيها من كلّ شيء واستبان لي عجز الخلائق أجمعين، ولم يأخذ بيدي إلا الواحد القهار"(١).

وحديث الغزالي عن الله يسنده إيمان عميق بعيد الغور في تركيبه النفسي والروحي، مما أعطى هذه السمة ألقا خاصا ضمن جملة الخلال والشمائل التي تنطبع بها شخصية الشيخ الغزالي، بل إنه يمكن الذهاب إلى أن هذا البعد هو الذي منح هذه الشخصية صورتها الشمولية المتناسقة مع شتى القيم والصفات الإنسانية العظيمة، وفي رأيي أنّ هذه الصفة تحديدا هي ثمرة من ثمرات علاقة الشيخ بالقرآن الكريم وإدمان النظر في سياقاته ودلالاته البديعة، إلى جانب استدامة التأمل في الكون وآيات الله في الأنفس والآفاق، فبات من الحتم أن تنطبع هذه الشخصية بإيمان شفاف بلّوري، ولنتأمل هذه العبارة الدالة على الكثير من المعاني التي ذكرناها أو ألمحنا إليها، يقول: "أنا رجل شرفي الأول والأخير أني أقول وراء محمد: {إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له} (سورة الأنعام ١٦٢ / ١٦٣).. أنا أشعر حين آكل بأن الله هو الذي وضع اللقمة في فمي وحين أفكر بأن الله هو الذي أسرج مصباح عقلي"(٢).

٢) **الشجاعة والإقدام:** وهذه صفة أخرى بارزة في شخصية الشيخ الغزالي، وهي وليدة التربية التي نشأ عليها، فقد ألزم نفسه منذ يفاعته المبكرة بالتحلي بفضيلة الشجاعة والتخلي عن رذيلة الخوف والاضطراب، ومن ذلك ما حكاه عن سيره منفردا في المقابر ليلا – وإنْ عرف بعد ذلك أن هذا المسلك منهي عنه في السنة المطهرة– يقول: "حدث وأنا غلام في مرحلة التعليم الثانوي أن اجتاح قريتنا حديثٌ عن الأشباح التي تظهر بالليل، وشعرتُ بوجل

يملكني وأنا أستمع إلى أنباء هذه الكائنات الخفية، ثم أنكرت من نفسي هذا الفزع الذي لا ينبغي أن يخامر مؤمنا، فإن المؤمن يخشى الله وحده.. وإذن فلأؤدِّب هذه النفس الهلوع، وبمَ؟ بإكراهها على مواجهة ما تخاف، وبعد العشاء اخترقتُ وحدي أعماءَ الليل المخيّم على البلاد والحقول، ودلفتُ إلى المقابر الموحشة الواقعة بعيدا عن العمران!! وأخذت أنقل خطوي بين دروبها الضيقة، وعيناي تستشفان كلّ شيء حولي، وقلبي لا يفتأ يدق، وكانت رحلة شعرتُ من أعماقي بكرهي لها، ولكن ما منها في نظري بدٌّ.. لقد قررت أن أدخل هذه المقابر من طريق وأخرج من طريق آخر، وأن أكرر هذه الجولة في ليال عدّة لأغالب في نفسي هذا الخوف الذي لا يليق بي"(٣).

ويظهر أن هذه التربية كان لها أثرها البعيد في نسيج الغزالي الروحي والنفسي، فقد شارك وقاد عدّة مظاهرات احتجاجية ضد الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي، وعندما كان في معتقل الطور ورأى أن العسكريين الذين كانوا يشرفون على المعتقل يأكلون حق السجناء خطب الجمعة داخل المعتقل فألهب العواطف وفجّر روح الثورة على هذا الظلم، وبعد انقضاء الصلاة قاد الشيخ مظاهرة أجبرت أولئك المشرفين على الرضوخ لمطالب المعتقلين فباتوا منذ ذلك اليوم يتسلمون ما تقرر لهم من الأطعمة الجافة والمعلبات ليقوموا بأنفسهم بطبخها وتوزيعها(٤)، وعلى هذا النحو من المواقف الشجاعة والتصرفات الجسورة انطبعت شخصية الغزالي.

٣) **نقد الذات والرجوع عن الخطأ متى تبين الصواب:** هذه الصفة من ألزم وأوضح خصائص شخصية الغزالي، فهو دائم المراجعة لنفسه وفكره وعلاقاته وتصرفاته، ويمكن إثبات هذه الخاصية ببعض الأمثلة، فعندما اختلف مع الأستاذ حسن الهضيبي المرشد الثاني لجماعة الإخوان، راجع الغزالي موقفه بشكل عام وتبين له أن هناك حدّة في طبعه كثيرا ما تتسبب في إبعاده عن الموضوعية، وقد أصلح الغزالي ما وقع بينه وبين الأستاذ الهضيبي– قبل رحيل الأخير بنحو عامين – وقد أثبت ذلك في الطبعة الجديدة لكتابه (من معالم الحق في كفاحنا الإسلامي الحديث) التي صدرت سنة ١٩٨٤م، وعندما سادت موجة الاشتراكية العالم العربي، تصدى لها الشيخ الغزالي، وقد اضطره الأمر إلى استعمال بعض المصطلحات مثل الاشتراكية الإسلامية، وكان ذلك بمثابة خطة لرد المعجبين بالشيوعية والمد اليساري إلى الإسلام ونظمه العظيمة – ظاهر وماشى الشيخَ الغزالي في هذه الخطة الكثيرُ من المفكرين الإسلاميين منهم: مصطفى السباعي وسيد قطب ومالك بن بني وعبد العزيز البدري وأحمد الشرباصي وغيرهم – لكن الشيخ الغزالي وبعد تراجع المد اليساري راجع منهجه في محاربة هذا التوجه، وفي الكثير من موارد كتاباته نجده يتحدث عن هذه المراجعة، وهو يعتذر أحيانا

عن هذا المنهج رغم جدواه الهائلة في تلك المرحلة التاريخية، ومن ذلك قوله ".. والكتب الأولى التي ألفتها في شبابي كانت دفاعا عنيدا عن الاسلام وتقديما للبدائل التي تغني عن الشيوعية، وهناك نقد موجه لهذه الكتب يتلخص في هذه النقاط: أن حقائقها العلمية مبعثرة ينقصها التماسك الفني، وأن العاطفة الحادة تسودها، وأنني قبلت مصطلحات الديمقراطية والاشتراكية وذلك لا يجوز، وهذه التهم فيها قدر من الصواب، وفيها أيضا بخس لجهد كبير، وعذري أني كنت أرتاد ميدانا لم أسبق إليه، والرائد يستكشف ويدع لغيره التنظيم وهذا ماحدث (...) أما قبول المصطلحات الحديثة فما زلت مترددا في حكمه، ولا ريب أني سأهجر هذه المصطلحات الدخيلة بعد ما يتحرك الفقه الإسلامي ويضع مايغني عنها"(٥).

إن هذه الخاصية في شخصية الشيخ الغزالي تركت أثرها الطيب في العديد من رجالات العلم والفكر والأدب، ومنهم المفكر الإسلامي الكبير الدكتور محمد عمارة الذي علق على مراجعة الغزالي لما كتبه عن الملك عبد العزيز آل سعود في أول مؤلف له نقلا عن مصدر كثير الشطط حيث قال: " وهو هنا يضرب نموذجا من نماذج الموضوعية في محاسبة النفس ونقد الذات، ومراجعة الفكر والعودة لما يراه حقا.. وتلك لعمري شواهد صادقة على عظمة هذا الشيخ الأواب"(٦)، وعندما كان الشيخ الغزالي أستاذا بجامعة قطر بدأ الكاتب المصري عبد الرحمن الشرقاوي ينشر بصحيفة الأهرام سلسلة مقالات تحت عنوان (علي إمام المتقين).. وكانت هذه المقالات تعرض أحداث التاريخ الإسلامي برؤية يسارية، فألقى الشيخ الغزالي محاضرة بالدوحة هاجم فيها مقالات الشرقاوي كما انتقد بشدة تيار ما سُمي يومئذ باليسار الإسلامي، وكان أن ذكر اسم محمد عمارة في جملة مَن ذكر من كتاب هذا التيار، إلا أن شابا قطريا –كان يتولى إدارة الشؤون الثقافية بجامعة قطر– أبلغ الشيخ الغزالي –وكان من مريدي فكره– بحقيقة فكر الدكتور محمد عمارة –وكان من القراء المعجبين بهذا الفكر– فسارع الشيخ الغزالي إلى مراجعة ما بدر منه وأخذ يقرأ بعض كتابات الدكتور عمارة ثم كتب له يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم: أخي الأستاذ الدكتور محمد عمارة: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد: فإن القليل الذي قرأته لك أخيرا ردّني إلى الصواب في أمرك، وجعلني أندم على تعجلي في عدّك من كُتاب اليسار الإسلامي.. لقد كنت في ضيق شديد للحرج الذي وقع الفكر الإسلامي فيه عندنا هنا في الخليج الذي يمرح فيه الغزو الثقافي غير خَجل ولا قلق.. وتناولت ناسا قرأت لهم ما لا يسر، ولكني ما كنتُ قرأت لك وإنما حدثني البعض أنك تصف الشريعة الإسلامية بأنها من وضع الفقهاء وتتبنى النظرة المادية إلى الفلسفة الإسلامية.. وما كان يليق بي أن أعتمد السماع في تقدير الرجال، ومن ثمّ كنت – بعد وصفي لك باليسار الإسلامي– قلقا في عدالة الحكم الذي صدر مني بالنسبة لكم خاصة.. والآن، وبعد قراءات قليلة لآثارك الأدبية أيها الأخ العزيز رجعت إلى مَن حدثوني وقلت لهم: إن الطبيعة

العقلية للدكتور محمد عمارة تتسم بعمق النظرة ودقة الحكم وسعة العلم، والتجرد للحق.. وإذا مضى في هذا الطريق فأحسبه سيكون نموذجا للأستاذ العقاد وعبقرياته الإسلامية.. معذرة عما قلته وعند أول فرصة لكتابة عامة سأنشر رأيي، فهذا حقك الذي يفرضه عليّ ديني، والسلام عليكم ورحمة الله / ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٤ هـ، أخوك: محمد الغزالي "(٧).

ويعلق الدكتور عمارة على هذا الخطاب فيقول: "قرأت خطاب الشيخ الغزالي.. وكانت المفاجأة التي هزّت كياني من الأعماق.. لقد وجدتني أمام وثيقة لا يكتبها إلا واحد من عظماء الرجال.. فهذا الشيخ الجليل الذي يقع مني موقع الأستاذ من التلميذ يجلس في موقعه هذا ليراجع نفسه ويحاسبها ولينقد ذاته وليعلن لي عن تصحيحه لموقفه مني، لا في إطار هذه الرسالة فقط، وإنما علنا وعلى رؤوس الأشهاد.. حقا إنه رجل أواب"(٨).

والذي ظهر لي أن هذا الجانب في أخلاق الشيخ الغزالي وشخصيته إنما كان نتيجة لحمل نفسه على أخلاق القرآن وتعهده لسلوكه بالتقويم والإصلاح والرعاية، وهو يصرح فعلا بذلك بقوله: "في صدر شبابي الأول كنت دقيقا في محاسبة نفسي، وكنت أرسم برامج قصيرة الأجل للتطهر مما أحقره من خلال وأعمال، وأذكر أنني استعنتُ بإحدى المفكرات السنوية لإثبات الأطوار التي أنتقل بينها من الناحيتين الذهنية والنفسية، وإنْ كنتُ فشلت آخر الأمر في استدامة هذا الأسلوب، ويرجع فشلي إلى أنني أطلب النتائج المستحبة بسرعة، على حين أكون محاصرا بظروف لا تسمح بذلك أبدا"(٩).

٤) **الإحسان والتذكر الدائم للآخرة:** الإحسان عند الشيخ الغزالي خلق فطري في طبعه وسجيته، فقد ولد وعاش طفولته في بيئة تجور على الفلاحين والبسطاء من الناس، ولا شك أن الإحساس بما كان يرى حوله من مظاهر الغبن والبؤس قد عمق في روحه هذا الخلق، فكان عطوفا محسنا مقيلا للعثرات، وفي أي بلد أقام فيه له بصمات لخلقه هذا، وله أياد بيضاء على الفقراء وذوي الحاجة والمسغبة والعوز، وقد سمعته مرة يقول: إنه لا يجوز لمن وسّع الله عليه أن ينسى المحرومين الذين يعيشون في ضيق شديد من العيش وليتذكر يوم كان حاله كحالهم..

وإلى جانب هذا الخلق العالي فإن الشيخ الغزالي دائم الارتباط بالملأ الأعلى لا ينسى مطلقا الدار الآخرة، بل إنه ينفعل إلى حدود بعيدة إذا كان الحديث عن هذا الأفق الرحب من آفاق الإيمان، وربما أحرج جلساءه بهذا الانفعال دون قصد منه، يقول المفكر المؤرخ الدكتور عبد الحليم عويس رحمه الله عن هذه الصفة في شخصية الغزالي: "إن هذا الداعية لم يتعصب قط لنفسه، ولم يشعر بأنه فوق الخطأ البشري، وبأنه –لجهوده– فوق الناس، بل عاش مع الناس في مشكلاتهم.. يتحدث عن أيام الفقر والضراء، كما يتحدث عن أيام السراء.. يداعب

ويمزح حتى يظن محدثه أنه خال من الهموم، فإذا جاء ذكر الله والآخرة بكى حتى أحرج جلساءه ومحدثيه، وقد كنتُ أصلي به إماما –في بعض الظروف وبإصرار منه– فيبكي وأنا أقرأ القرآن بعد الفاتحة فأضطر إلى اختصار القراءة!! وكنا يوما في الجزائر نقرأ عليه أنا ومعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بعض حكم ابن عطاء الله السكندري فأخذ يبكي ويتأوه ونحن في سكون ووجوم لا ندري ماذا نفعل"(١٠).

وهذا كله إنما يدل على مدى شفافية الروح التي تسكن إهاب الشيخ الغزالي، والانفعالات التي تحاصره ولا يستطيع التحكم فيها ليست تلك التي تغشاه وهو يتحدث عن الآخرة فحسب وإنما هي انفعالات متدفقة كثيرا ما تظهر عند حديثه أو كتابته عن الجانب العاطفي في الإسلام، ومما رواه مثلا الشيخ عن نفسه "أنه حين يؤلف عن الجانب العاطفي في الإسلام وعن فن الذكر والدعاء؛ فإنه لم يستطع أن يتحكم في انفعالاته، وظلت دموعه تختلط بمداد قلمه الذي يكتب به، حتى اضطر إلى إعادة كتابة صفحات كثيرة بلّلها الدمع وطمس معالمها"(١١).

٥) **خفض الجناح والتواضع لأهل الإيمان:** ومن السمات البارزة أيضا في أخلاقيات شخصية الغزالي: اللين والتودد والتواضع وتجاوز العثرات مع أهل الإيمان جميعا، ولا شك أن هذه الخاصية ثمرة طبيعية لبعض الخصائص آنفة الذكر، وإنْ كانت في عمقها بالنسبة لأخلاقيات الغزالي تبدو وكأنها نحيزة وأصل وفطرة زادها الإيمان ألقا وإشعاعا، وهو يشير إلى هذه السمة بقوله: "ثم إني شعبي في تصرفي، لو كنت ملكا لأبيتُ إلا الانتظام في سلك الأخوة المطلقة مع الجماهير الدنيا، أخدمهم ويخدمونني على السواء! وقد فكر أحد الفراشين أن يزوجني ابنته، يحسبني غير متزوج! وضحكتُ مسرورا، لأن الرجل لم يلمح في نفسي أثارة من كبرياء تصدّه عني أو تصدني عنه، برغم ما يفرضه الناس بيننا من تفاوت شاسع في الطبقات!!"(١٢).

ويعلق الشيخ على ما يكون قد طرأ من تغيرات على أصول هذه السمة فيقول: "وقد تكون الأيام غيرت مني والتجارب القاسية علمتني، فجعلتني –وأنا الضحوك المبتهج– أغوص في بحار من الأكدار، أو أتحرى موضع قدمي وأنا أسير بين الناس، كأنما أحاذر شراكا منصوبة، أو أصعر خدي –علم الله لا عن كبر– بل إحجاما عن قبول الدنية ورفضا لهضم الحقوق! وما اضطررت إليه من عمل ينافي طبعي، فإن مرده طبيعة الأحوال التي أحيا فيها، وليس البتة من طبيعة الرسالة التي أؤديها بعدما صرتُ إلى ما خطه القدر لي، أي رجلا من الدعاة إلى الله وهمزة وصل بين الأرض والسماء"(١٣).

إن خلق التواضع خلق أصيل في سلوك وسجية الشيخ الغزالي لا يشوبه تصّنع أو تكلّف كما هو الحال عند بعض الناس، ومن ثمة فهو من أهم العوامل التي جعلت أخلاقيات الغزالي ذات عمق تأثيري يحس ألقه كل شخص له جهاز عاطفي سليم كُتب له التعامل مع الشيخ الغزالي، وقد أصغيتُ ذات مرة لحديث الدكتور زكريا مطر وهو يروي تأثره البالغ بهذا الخلق المتأصل في سلوك الغزالي، فقد حدث أن ذهب ذات يوم يزور الشيخ الغزالي في بيته بقسنطينة –وكان الدكتور مطر حينئذ يعمل أستاذاً بجامعة قسنطينة– ولما دخل البيت بادر بخلع حذائه وجواربه عند المدخل، وعندما همّ بالانصراف تفاجأ بالشيخ الغزالي يحمل له حذاءه بنفسه، ويناوله إياه في تواضع هو بحدّ ذاته آية من آيات انتصار المؤمن على كبرياء النفس، وشارة من شارات خفض الجناح لأهل الإيمان والتبسط مع الناس(١٤).

هذه أبرز وأهم الصفات الخلقية والنفسية في شخصية الشيخ الغزالي، وليس من شك أن الاستقصاء هنا انصب أساسا على الخصال والمواصفات التي قد يلاحظها أو يتلمسها كلٌّ من أتيح له التعرف المباشر أو التعامل مع الشيخ، أما الإحاطة الكاملة بجوانب الموضوع فتتطلب صفحات كثيرة لا تتسع لها هذه الصفحات.

ثانيا: أهم العوامل المؤثرة في تكوينه:

هناك مجموعة عوامل تضافرت فكان لها أثر وتأثير في الجوانب والأبعاد العامة لسلوك وأخلاق الشيخ الغزالي، وكذلك في مناحي تفكيره وتوجّهه العلمي، ومن أهمها –حسب اجتهادنا الشخصي– ما يأتي:

أ) **تدّين الأسرة وتكفل والده بتربيته:** نشأ الغزالي وسط أسرة قروية بسيطة –بين إخوة سبعة هو أكبرهم– وكانت هذه الأسرة عميقة التدين مستقيمة النهج والخلق، فكان لهذه النشأة أثرها في تحديد المعالم الأولى لشخصيته، ثم إن والده كان حريصا حرصا كاملا على رعايته وتربيته التربية الصالحة، خاصة فيما يتعلق بأمر تحفيظ القرآن الكريم وتلقين الأخلاق السامية والمبادئ الراشدة، وكان ذلك حينئذ ممّا تشتهر به وتتنافس فيه القرية المصرية، كما لا يمكن أيضا إغفال دور وأثر والدته التي كانت سيدة بارة محسنة صالحة تحب الخير والإحسان للناس، وقد كانت تحثّ الغزالي على أن يحسن للجميع، وتطلب منه –في كل مرة يعود فيها من القاهرة إلى قريته الصغيرة (قرية نكلا العنب)– أن يعدّ أكبر مبلغ من المال لإنفاقه في أوجه الخير والبر، وكانت غالبا ما تكلفه أكثر مما أعدّ لهذا الغرض(١٥).

ب) **حب القراءة والشغف بالمعرفة:** ومما له أثره الكبير كذلك في التكوين الفكري للشيخ الغزالي حبه المبكر للقراءة والمطالعة والمتابعة الثقافية، وهو يتحدث عن تميز مرحلة طفولتة بهذا البعد فيقول: "وطفولتي كانت عادية ليس فيها شيء مثير وإنْ كان يميزها حبُّ القراءة.. فقد كنت أقرأ كلّ شيء ولم يكن هناك علم معين يغلب عليّ، بل كنت أقرأ وأنا أتحرك وأقرأ وأنا أتناول الطعام" (١٦)، وقد أسهمت القراءة في تشكيل وعي الشيخ المبكر والتعرف الدقيق على تفصيلات الواقع الذي يعيشه المجتمع المصري، كما أكسبته حسا نقديا وارتباطا بالمسائل التي يصخب بها واقع الناس والمجتمع، وهو ما تبدت انعكاساته بوضوح –فيما بعد– في عطائه الفكري وفي أسلوب معالجته وتناوله للمسائل التي يتعرض لها واقع المسلمين والحياة الإسلامية.

جـ) **التلقي عن كبار العلماء والبيئة التربوية التي نشأ في محيطها:** من أهم العوامل التي كان لها أثرها وبصماتها في صياغة التوجه العلمي والخلفية الفكرية عند الشيخ الغزالي أخذه العلم والمعرفة عن ثلة من كبار علماء وفقهاء ومفكري الإسلام في هذا العصر، ونحن نجد الغزالي يذكر من مشايخه وأساتذته الأكثر تأثيرا في نفسه "الشيخ عبد العزيز بلال، والشيخ إبراهيم الغرباوي، والشيخ محمد الريان.. ويعلل ذلك التأثير بما تميز به هؤلاء –ومَن في طبقتهم أيامئذ– من السلوك العالي والإخلاص الذي يريهم العلم والتعليم وسيلتهم المفضلة إلى مرضاة الله، وبذلك كانوا المعلمين والأسوة في آن واحد،

ومن أمثلة ذلك التي لا ينساها ما يرويه من أن شيخه الريان كلفه ذات يوم إعراب الجملة التالية: (عبدتُ الله) وعلى دأب ذلك الجيل الملتزم أجاب أن اسم الجلالة منصوب على التعظيم، فما تمالك الشيخ الريان أن بكى.. وحق لإنسان مشغول القلب بحب الله أن يبكي وهو يستمع إلى ذكر مولاه معظما على لسان تلميذه، ولا جرم أن مجرد اختزان الشيخ لهذه الذكرى منذ ذلك العهد إنما يصور مدى تأثره بموحيات ذلك الجو المتوهج بالإشراق"(١٧).

ومن الواضح أن الغزالي تأثر بالبيئة التي ترعرع بين جنباتها، وهي بيئة تربوية يطبعها الإقبال على العالم والانخراط في الحركات والجمعيات التربوية والفكرية والثقافية ونحوها، لذلك فهو في فكره وكتاباته ممن يؤمنون ويعولون على أهمية عامل البيئة في إصلاح المسالك والحفاظ على سلامة النفوس من الأوضار التي من شأنها إفساد الفطرة وإيذاء الروح، ونراه يشير إلى ذلك بقوله "أنا لم أرثْ الدين عن والدي كما ورثتُ قصرَ القامة وبياضَ البشرة؛ بل لقد مرّت عليّ أيام فرّغت نفسي من كلّ اعتقاد، وتركت لعقلي أن يوازن ويختار، والذي أعانني على إيثار الإسلام: أن لغتي هي لغة القرآن، وأن الدراسة الناقدة له ولغيره كانت ميسرة لي، أي أن ظروف البيئة التي احتوتني هي التي جعلتني مسلما على حين حُرم غيري هذه المنحة الطيبة، لأن ظروف بيئته باعدت بينه وبين الاهتداء، بل لعلها زينت له الأخذ بضده، وملأت نفسه ثقة ورضا بما عنده، وليس ماعنده إلاّ الضلال الخادع، إن آثار البيئة في الخلق والسلوك ونوع الدين لا يمكن نكرانها"(١٨).

ومن العلماء أيضا الذين أسهموا في تشكيل البيئة العلمية والتربوية والثقافية التي تركت أثرها في البناء العقلي والفكري للشيخ الغزالي: الشيخ عبد العظيم الزرقاني والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد أبو زهرة والشيخ محمد عرفة والشيخ عبد الوهاب خلاف والدكتور محمد عبد الله دراز والدكتور محمد أحمد الغمراوي. ولئن كان الغزالي قد أخذ وتأثر بكل هؤلاء –وهو يعترف لهم بالفضل العظيم– فإن تأثره الأكبر –الذي ظل يذكره ويكرره طوال حياته– كان بمجدد القرن الرابع عشر الهجري الإمام الشهيد حسن البنا، فهو بالنسبة إليه وليّ نعمته، وسبب انطلاقه ونشاطه لفهم الإسلام وخدمة تعاليمه، وإذا فهمنا بعمق دلالة هذه الرابطة فإننا لا نعجب ونحن نجد الغزالي يذكر الإمام البنا في موارد كثيرة من كتاباته، بل إن بعض مؤلفاته –مثل دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين– كان شرحا وتأصيلا لأفكار هذا الإمام المجدد.

ففي الذكرى الأولى لاغتيال البنا كتب الغزالي مقالا تحت عنوان "غصن باسق في شجرة الخلود"، جاء فيه: "لقد قتل حسن البنا يوم قتل والعالم كله أهون شيء في ناظريه! ماذا خرقت الرصاصات الأثيمة من بدن هذا الرجل؟ خرقت جسدا أضنته العبادة الخاشعة، وبَرَاهُ طول القيام

والسجود، خرقت جسدا غبّرته الأسفار المتواصلة في سبيل الله، وغضّنت جبينه الرحلات المتلاحقة إلى أقاصي البلاد، رحلات طالما عرفته المنابر فيها وهو يسوق الجماهير بصوته الرهيب إلى الله، ويحشدهم ألوفا ألوفا في ساحة الإسلام! لقد عاد القرآن غضا طريا على لسانه، وبدت وراثة النبوة ظاهرة في شمائله، ووقف هذا الرجل الفذ صخرة عاتية انحسرت في سفحها أمواج المادية الطاغية، وإلى جانبه طلائع الجيل الجديد الذي أفعم قلبه حبا للإسلام واستمساكا به (...) لقد عرفتُ التجرد للمبدأ في حياة هذا الرجل، وعرفت التمسك به إلى الرمق الأخير في مماته (...) عجبا لهذه الدنيا وتبا لكبرائها! وارحمتاه لضحايا الإيمان في كلّ عصر ومصر، أكذلك يقتل الراشد المرشد" (١٩)

د) **الصراعات السياسية وظاهرة الاستعمار**: عرفتْ مصر مع البدايات الأولى للقرن العشرين الميلادي الصراعات السياسية والأيديولوجية، وكان لحركة الاستعمار الغربي دور ظاهر في توجيه الكثير من التيارات والاتجاهات السياسية قصد تحقيق أغراضه، وتعويق نضال التوجّهات الإسلامية والوطنية، وليس من شكّ أن الكثير من انعكاسات ذلك الصراع كان لها انطباعها ونضحُها وأثرُها في نفس الغزالي ووجدانه وفكره، خاصة أن ذاكرته –كما جاء في مذكراته– قد التصق على شريطها العديد من صور الظلم الاستعماري وأساليب كيده المرصودة لتدويخ ووأد "محاولات" النهضة الإسلامية في مصر.

ولعلّ وعي الغزالي وإدراكه المبكر لأهداف ومرامي هذه الصراعات ساقه إلى الانضمام لحركة الإخوان المسلمين وهي في بدايات ظهورها –بل إنه يُعتبر من بين مؤسسيها الأوائل– وذلك لإيمانه بقدرة الإسلام على الوقوف أمام محاولات الاستعمار الغربي والخونة ممن وكّلهم على رعاية مصالحه وخدمة أهدافه، ومن هنا فإننا نفهم دواعي وبواعث تلك المواقف الشجاعة التي وقفها الغزالي في وجه القصر الملكي –راعي الهيمنة الاستعمارية والمصالح الغربية– وإفرازاته الاجتماعية والاقتصادية المختلفة المتمثلة بشكل أخص في مظاهر الإقطاع والفروق الهائلة في مستوى العيش والكرامة الإنسانية، وتداعيات الظلم الاجتماعي والغبن الاقتصادي، وقد عبّر الشيخ الغزالي –فيما بعد– عن كلّ هذه الصور والمظالم التي تركت أثرها الغائر في عميق وجدانه، من خلال مؤلفاته "الإسلام والمناهج الاشتراكية" و"الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين" و"الإسلام والأوضاع الاقتصادية" و"الاستعمار أحقاد وأطماع" و"الإسلام والاستبداد السياسي"... إلخ.

كما أن استبطان الغزالي منذ طفولته وبواكير شبابه للعديد من صور الامتهان والاستبكار التي ألحقها الغرب المتعجرف بالعالم الإسلامي، إلى جانب اعتزازه بالإسلام –نتيجة ثقافته– جعله في موقع المدافع الغيور والمناضل الباسل، خاصة أنه يتذكر هجوم الانجليز المحتلين على قريته الصغيرة سنة ١٩٢٠م وهو ما يزال في الثالثة من عمره، كما يعلق بذاكرته –وهو ابن سبع سنوات– خبر سقوط

الخلافة الإسلامية على يد الطاغية المرتد مصطفى كمال أتاتورك، وقد ترجم عن كلّ تلك الترسبات والتأثرات فكان مراسا ذا شدة في حملته الواعية ضد الزحف الأحمر (الشيوعي) والزحف الأحقر (العلماني والرأسمالي).. حيث أصدر في مقاتلته واعتراض هذه الزحوف مؤلفات عديدة منها: "الإسلام في وجه الزحف الأحمر" و"ظلام من الغرب" و"الغزو الثقافي يمتد في فراغنا" و"حصاد الغرور" و"قذائف الحق"... إلخ.

ولم يغفل الشيخ الغزالي أيضا عن ملاحقة التيارات التي فرّختها زحوف الغزو الخسيس، وقد تجلى ذلك بصورة واضحة من خلال كتبه: "حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي" و"معركة المصحف في العالم الإسلامي" و"علل وأدوية" و"كفاح دين"، ولعله من المهم هنا الإشارة إلى أن الأوضاع السياسية التي عاشتها مصر والعالم الإسلامي منذ مطالع القرن العشرين الميلادي كانت من أهم المؤثرات في صياغة وتوجيه البناء الفكري للشيخ الغزالي، فكان لا بد أن يكون لانعكاساتها المختلفة المتناقضة صدى واضح وقوي في عطاء الشيخ الفكري والثقافي والمعرفي.

هـ) **الثقافة الإنسانية الواسعة:** ومن العوامل التي يجب أن تذكر كذلك في هذا المقام لأثرها البارز في التكوين الفكري للشيخ الغزالي شغفه بمطالعة عطاءات العقل الإنساني وإبداعاته المختلفة، ومتابعة ما يجري في العالم على كلّ صعيد. وإن القارئ لمؤلفات الشيخ الغزالي يلاحظ بيسر تام أثر هذا التعامل وصداه في عطائه الفكري –رغم أنه لا يتقن من اللغات سوى العربية– ومن أقرب الأمثلة على ذلك قراءة الشيخ لكتاب المؤلف الأمريكي ديل كارنيجي "دع القلق وابدأ الحياة" وقيامه بجهد أسلمته، أي إعادة أفكار الكتاب إلى جذورها وأصولها الإسلامية، وكذلك رده على المستشرق اليهودي المجري جولد تسيهر صاحب كتاب "العقيدة والشريعة في الإسلام" بكتابه النفيس "دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين"، فضلا عما يظهر من أثر هذا البعد أو العامل في كتابات كثيرة ضمّنها الشيخ بعض مؤلفاته، ويبدو لي أن هذا التوجّه في فكر الشيخ إنما هو ثمرة من ثمرات تأثره بالقرآن الكريم، ظاهرة بقوة في شتى المسائل التي تعرض لها والقضايا التي عالجها.. إنني أميل إلى هذا الاستنتاج لأن الشيخ الغزالي يؤثر الأدب العربي والدراسات النفسية على غيرهما من العلوم ومجالات التثقيف(٢٠) ولعل ذلك بعض سر إعجابه واحتفائه بالعقاد والرافعي والزيات والمنفلوطي والمتنبي وأبي تمام وابن الجوزي وابن القيم ونحوهم.

ومما تقدم نخلص إلى أن أنساق العوامل والمعطيات التي كان لها تأثيرها وبصماتها في التكوين الفكري للشيخ الغزالي في عمومها وأسسها إنما هي عوامل تربوية ثقافية، اجتماعية سياسية، وعقدية إنسانية، بيد أنه يمكن القول أن المؤثرات الإسلامية، خاصة منها الوعي بالقرآن واستلهام حقائقه

هي التي كان لها أثرها الحاسم في تشكيل وبلورة فكر الغزالي الإسلامي والإنساني على السواء، وهي التي منحته كذلك تلك المسحة الجمالية البديعة والخصائص المتميزة.

الهوامش:

١ ـ محمد الغزالي " مقتطفات من مذكرات الشيخ " مجلة إسلامية المعرفة ـ عدد خاص بالشيخ الغزالي، ص ١٦٣

٢ ـ محمد الغزالي " الإسلام والثقافة العربية في عالمنا المعاصر " مجلة إسلامية المعرفة ص ١٥٠

٣ ـ محمد الغزالي، جدد حياتك (قسنطينة / الجزائر: دار البعث، ط٣، ١٩٨٦) ص ٢٣٢

٤ ـ يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته، ص ١٦

٥ ـ محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (الجزائر: دار الكتب، ط١، ١٩٨٧ م) ص ١٣٨ – ١٣٩

٦ ـ محمد عمارة، الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكري والمعارك الفكرية (القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١٩٩٢،١م) ص ١٠٣

٧ ـ المرجع نفسه، ص ١٠٨ – ١٠٩

٨ ـ المرجع نفسه، ص ١٠٧

٩ ـ محمد الغزالي، جدد حياتك، ص ٢٣١

١٠ ـ عبد الحليم عويس وآخرون، الشيخ محمد الغزالي: صور من حياة مجاهد عظيم (القاهرة: دار الصحوة، ط١٤١٣،١هـ، ص ١٢

١١ ـ فهمي هويدي " الفارس الذي ترجل " مجلة النور الكويتية، العدد (١٣٧)–يونيو ١٩٩٦ م، ص ٤٢

١٢ ـ محمد الغزالي، تأملات في الدين والحياة (الاسكندرية: دار الدعوة، ط٢، ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م) ص ٥

١٣ ـ المرجع نفسه، ص ٦

١٤ سمعتُ هذه القصة شخصيا من فم الدكتور زكريا مطر، عندما زرته في بيته بقسنطينة في آواخر الثمانينات، حيث كان حينئذ يعمل أستاذا للجيولوجيا بجامعة قسنطينة.

١٥ ـ محمد شلبي، الشيخ الغزالي ومعركة المصحف في العالم الإسلامي، ص ٢٥

١٦ ـ حوار مع الشيخ محمد الغزالي، إعداد دار المختار الإسلامي (القاهرة: ط١٩٩٦،١ م) ص ٥٥

١٧ ــ قطب عبد الحميد قطب، محاضرات الشيخ محمد الغزالي في اصلاح الفرد والمجتمع، ص ١٩

١٨ ــ محمد الغزالي، كيف نفهم الإسلام (الجزائر: دار الكتب، ١٩٨٧ م)، ص ١٨

١٩ ــ محمد الغزالي، تأملات في الدين والحياة، ص ٥٠ – ٥١

٢٠ ــ قطب عبد الحميد قطب، محاضرات الشيخ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع (مرجع سابق)، ص ٢١